الألماني زيتسين والرحلة إلى الشرق

مازن الراوي - برلين

درس عادات وتقاليد المنطقة تاركاً دراسة الطب وسلك الصحراء إلى مكة بخارطة واغيتل عام ١٨١١ بإيعاز من إمام صنعاء وكانت مذكراته ويومياته كشفاً جديداً لعالم قديم.

برحلاته الاستشراقية إلى الشرق الأوسط وأفريقيا ، الغنية بنتائجها ، خلف الباحث أولرش ياسبر زيتسين مبكراً تركة مهمة للغاية في هذا الحقل وأصبح بمصاف مواطنه الشهير كارستن نيبور. كما اعتبر لدى الباحثين أحد أهم الأعلام في مجال الاستشراق ،

بما قدمه من تركة غنية من مخطوطات وأبحاث ومذكرات وبما جمعه من وثائق تاريخية ولقى مهمة في مناطق تجواله، أغنت عالم الشرق وقدمت خدمات جلى للباحثين والدارسين فيما بعد. وزيتسين هو واحد من المهتمين الاستثنائيين بهذا الحقل من المعرفة، كرس حياته لاكتشاف ولدراسة الشرق العربي، خاصة من داخله. لذلك درس وتعلم اللغة العربية وامتزج بثقافة المنطقة. ثم أسلم وتزيا بزي أهلها مقتنعاً بأن من يريد معرفة المنطقة لابد أن يكون واحداً من ناسها، لتأتي ملاحظاته وكتاباته دقيقة وصميمية، من دون ترفع، ومن دون موقف ثقافي مسبق تحكم أفكاره ورؤيته فتؤثر في استنتاجاته الاستشراقية. وهو أخيراً منح حياته للمنطقة، إذ مات في شبه الجزيرة العربية. قبل نحو ٢٦٠ عاماً ولد زيتسين في منطقة شرق فريزن بألمانيا من عائلة مزارعة. درس الطب في غونتغن المشهورة بجامعتها. ثم درس العلوم الطبيعية والزراعة والاقتصاد السياسي، لكنه قرر عدم المضي في ممارسة اختصاصه الطبي. ثم قام بجولات دراسية تمهيدية في ألمانيا والنمسا وهنغاريا، ونشر مقالات عديدة في حقل التاريخ الطبيعي والمعادن والتكنولوجيا. تعرف زيتسين في الجامعة على الكسندر فون هومبولد - الذي تحمل الآن جامعة برلين اسمه - واقتنعا معاً بوضع خطة للسفر إلى بلدان بعيدة. وهكذا التزم هومبولد السفر إلى أمريكا الجنوبية للقيام بأبحاثه العلمية هناك في عام ١٧٩٩، فيما اختار زيتسين آسيا وأفريقيا ميداناً لأبحاثه. وأخذ يدرس بدأب جميع النشريات المتعلقة بالمنطقة. وكان في خطته أن يعبر أفريقيا من الشرق إلى الغرب في ثلاثة أعوام. واراد أن يتفهم ويتألف مع العادات والتقاليد وأفكار المنطقة المزمع زيارتها ليرى وليتفحص بنفسه المنتوجات الطبيعية والفنية لقاطني تلك المناطق ويدرسها. وكان يعتزم بالدرجة الأولى أن يدرس التاريخ الطبيعي في المنطقة من حيث الزراعة والتجارة والديموغرافية السكانية فضلاً عن فنون المنطقة، الرياضيات والفيزياء والجغرافية القديمة، كما كان ينوي دراسة الكشوفات والمواقع الأثرية فيها. في عام ١٨٠٢ قام بأول رحلة استكشافية إلى آسيا الصغرى، ثم إلى سوريا وإلى فلسطين. سافر إلى حلب بقافلة من الجمال والدواب ليمكث فيها ١٥ شهراً مكرساً نفسه لتعلم اللغة العربية، متفحصاً ودارساً الكثير من المخطوطات العربية. ومن حلب وصل إلى دمشق. ثم تجول في سوريا وذهب إلى فلسطين وهو يجمع معلومات غنية ضمن برنامجه الدراسي. كما جمع عدداً كبيراً من المواد واللقى الثمينة التي اعتمد عليها في دراسته وفي أبحاثه. وفي عام ١٨٠٥ عاد إلى دمشق. وبعد جولته فيها جهز نفسه للذهاب إلى لبنان وإلى عرمون ثم إلى الأردن ومنها إلى البحر الميت والقدس. ويقول الكثير من المعلومات عن حياته بأنه امتزج بإرث المنطقة وتأثر بها روحياً بحيث غير اسمه في عام ١٨٠٥ ليصبح موسى الحكيم - باسم أحد الفيزيائيين العرب -. وهو أول أوروبي أماط اللثام عن جرش والآثار الرومانية فيها. عاد زيتسين في عام ١٨٠٧ مجدداً إلى القدس حيث جمع فيها معلومات ثمينة عن طبيعة الأرض وطوبوغرافيتها وعن معادنها. ثم ذهب إلى الخليل، وعبر سيناء وجبالها بقافلة راحلة إلى السويس والقاهرة حيث مكث فيها عامين متفحصاً حياة الناس وعلاقاتهم وتقاليدهم منغمراً في الدراسة والكتابة وهو يتجول في المكتبات والأماكن التاريخية. وقد جمع ١٥٧٤ مخطوطة و٣٥٣٦ مادة اركيولوجية وعدداً من العينات التي تساعد في أبحاث المعادن والأشجار والحيوان في المنطقة. وفي عام ١٨٠٨ زار الفيوم وتفحص الأهرامات في الجيزة. وفي تنقلاته وتجواله وضع خرائط مفصلة ودقيقة معززة بالشروحات عن طوبوغرافية الأرض أرسلها إلى دوقية غوتا حيث أصبحت الآن مادة دراسية مهمة دفعت العديد من المستشرقين فيما بعد إلى أن يواصلوا نهجه. وكان زيتسين في معظم رحلاته يرتدي أسمالاً كالتي يرتديها الفقراء والشحاذون، ويسلك سلوك أهل البلد لا عن قصد وإنما عن تطبع وإعجاب وقناعة بالإنغمار وبالتماهي مع ناس المنطقة، يكن لهم الحب والمودة، ويعتبرهم متلائمين مع المنطقة دون تعارضات وأزمات، قانعين بالطبيعة وما توفرها لهم من حياة. وخلال إقامته في القاهرة قرر الذهاب إلى شبه الجزيرة العربية التي لم يتوفر عنها آنذاك الكثير من المعلومات الثمينة والمفيدة، كما كان يعتقد. وهكذا أبحر من السويس إلى جدة قاصداً حج بيت الله الحرام، فاستطاع الوصول إلى مكة. وهناك أنجز لها وللمسجد الكبير خارطة شديدة الدقة، ربما كانت أول خارطة من نوعها نفذها مستشرق أوروبي. ولم يكن الأوروبيون يعرفون آنذاك الطريق المعتاد في سفر أهل المنطقة إلى صنعاء، فسلك زيتسين الطريق من المدينة ثم الحديدة وصولاً إلى صنعاء. ووضح ذلك بخارطة ترشد إلى المسالك وإلى أفضل الطرقات والدروب للوصول إليها، في ١٧ تشرين الثاني أرسل زيتسين رسالة أخيرة إلى بيرنهارد أوغست فون ليندلو بمدينة غوتا، كانت هي آخر رسالة كتبها إلى أوروبا. ولكن بعد أربعة أعوام عرفت أوروبا بأن زيتسين كان يقصد الوصول إلى صنعاء لملاقاة إمامها، وكان يريد بهذا اللقاء الشفاعة منه ومساعدته لاستعادة أوراقه ومقتنياته المهمة التي صودرت منه في مكة المكرمة. ولكنه قتل على مقربة من تعز. وفي مذكراته التي دأب على تدوينها بدقة يشير يوم ٢٣ آذار ١٨٠٩ إلى اليوم الأخير الذي خطت يد زيتسين تلك المذكرات قبل مقتله. وفي آذار سافر صوب اليمن بوثيقة سماح صادرة من الإمام. وفي عام ١٨١٠ تندفع قوة قوامها ٦٠٠٠ رجل وتهجم على منطقة حران، جنوب دمشق، وتدمر ٣٥ مدينة وقرية، قاتلة ذكورها. وبذلك ترتعد دمشق وتسودها حالة من الذعر وتعمها الفوضى. كان بمقدور الوهابيين الذين زحفوا إلى حران احتلال المدينة إلا أنهم غادروا المنطقة وتواروا مع غنائمهم في الصحراء. ترك زيتسين مخا باتجاه صنعاء في أيلول ١٨١١ برفقة قافلة من ١٧ جملاً محملة بالبضائع وبضمنها ممتلكات زيتسين الشخصية. ولكن بعد يومين من السفر عثر على جثته مرمية على قارعة الطريق قرب تعز. وفي الأرجح جرى تسميمه بإيعاز من إمام صنعاء لئلا يغادر الجزيرة إلى أفريقيا. كان ثمة تخوف من مصر التي استولى على مقاليد الأمور فيها محمد علي باشا. ويخبر الرحالة الإنجليزي جيمس سيلك باكينغهام، الذي نشر "رحلات بين القبائل العربية"، يخبر دوق غوتا في عام ١٨١٥ بأن زيتسين قد اغتيل سنة ١٨١١, أما التقارير التي كتبها زيتسين في يومياته فهي غنية بالمعلومات ومرحة أحياناً، غنية بتفاصيل وصفها في لقاءاته مع زعماء القبائل وكبار الملاكين والباعة والخدم. ويصف بحيوية جوانب الاستمتاع وقضاء الوقت لدى الناس في الأسواق وفي الحانات. كما يصف التعدد والتنوع في المجتمعات الشرقية. وتعتبر ملاحظاته الدقيقة ووصفه التفصيلي القيم عن الجوانب الأثنية والمذهبية والجغرافية وثائق مهمة في أبحاث الشرقيات. لقد اكتسب زيتسين شهرة واسعة لنزاهته ولتجرده في النظر إلى حياة الناس في الشرق. ابتعد في الواقع عن الانطباعات الأوروبية الخاطئة التي كانت تسود الدوائر الثقافية الأوروبية عن الشرق. وبموته في اليمن فقدت أوروبا رائداً وباحثاً عصرياً في الشرقيات. وقد قرب الشرق الغامض بشعوبه إلى الفهم المعاصر للشرق. وتحتوي الآن مكتبة أولدنبورغ، حيث ولد زيتسين فيها، على ٨ مجلدات من المذكرات التي كتبها. وهذه المذكرات التي اعتبرت مفقودة آنذاك وصلت إلى البروفسور كراوزه بـ اسلاند حيث دققها وأصدرها في أربعة مجلدات. ومن خلال هذه المجلدات وغيرها من الوثائق والمخطوطات واللقى استطاع العالم أن يعرف دقة الأبحاث الجغرافية والمشاهد الغنية بالانطباع والتحليل التي قام بها أولش ياسبر زيتسين وكرس لها حياته. ويعتبر اليوم إلى جانب نيبور وبوركهارت واحداً من أهم المستشرقين الذين أضاؤوا الشرق فمهدوا بذلك الطريق إلى الاستشراق المعاصر. ومثلما دخل العالم السويسري يوهان لودفيج بوركهارد إلى الدين الإسلامي فعل زيتسين أيضاً. وقد اعتقد كلا العالمين بأن الاستشراق لا يضاء إلا من الداخل، ويغتني بالصدقية بثقافة المنطقة، الثقافة الإسلامية، لا بنظرة غربية مستعلية تضع قيمها وثقافتها معياراً لتقييم الآخرين.

ثقافة شعبية في (المدى)

حصيلة العام الاول

ظهرت الصفحة الأولى من ثقافة شعبية في (المدى) صباح الأربعاء ٧ كانون الثاني ٢٠٠٤ في العدد ٣٢ وظهرت الصفحة رقم (٤٨) في عدد الاربعاء ٣٠كانون الاول ٢٠٠٤ لتختتم اصدار عام كامل في هذا الحقل الحيوي من حقول المعرفة الشعبية. وقد نالت هذه الصفحة اهتمام القراء والكتاب لما تعتمده من حيوية للموضوعات التي تنشر فيها في مختلف فنون واداب المعرفة الشعبية والحيوية من دون نشر موضوعات مكررة تعتمد تبسيط الفعالية الشعبية وتقديمها كطرفة غريبة لا اثر للجانب المعرفي او العلمي فيها.

ان تقديم مواد الثقافة الشعبية في صفحة مرموقة مثل (المدى) يتطلب جهداً خاصاً يتوخى العناية والتدقيق حتى على قدر المفردة الواحدة لكي تحافظ الصفحة على مستواها الطيب وثقلها بين القراء والكتاب التي ظهرت في ٧ كانون الثاني ٢٠٠٤ .

من موضوعات الصفحة الاولى: التصغير الشعبي في الاسماء، تطورات السيرة الشعبية ، صفحات من كتاب الجمال عبر التاريخ، ثم استمر طرح المواد المتنوعة في فنون القول والعمل الشعبية عبر الصفحات التالية وكان منها.

فولكلور الاعلان، موسوعة التراث الشعبي العراقي، النحلة في الاساطير والمعتقدات ، السحر، الحكاية ونظريات الدرس، تحولات اللغة الشعبية ، السحر الابيض، معتقدات شعبية.. الخ.

وفي حقل الشخصيات الشعبية قدمت الصفحة: انستاس ماري الكرملي منعم فرات، ابو ضاري، زهور حسين ، المس بيل وابن عبدكه، عزيز علي، جياد الاعمى، بنت المعيدي، محمد رضا الشبيبي، ليث الخفاف.

وفي الحقول الاخرى كالعمارة والاماكن المشهورة في المدن (مقهى عباس منسي في كربلاء واسواق بغداد والموصل) والفنون الشعبية والازياء والموسيقى. كان لثقافة شعبية دورها في العرض والتقديم والتحليل اضافة الى اهتماماتها بعلوم البيئة والموسيقى واصول البحث الميداني الفولكلوري وتغطيتها اصدارات الثقافة الشعبية الحديثة والقديمة في باب (مكتبة) واستحداثها باب(ستوديو) لتطل منه بالصورة على معالم الإبداع الشعبي عراقياً وعربياً وعالمياً.

أكثر من ١٥٠ باحثاً ومترجماً ساهموا في هذه الصفحة خلال العام الفائت ونحن سعداء بهم وبعطائهم أملين ان يتسع هذا العام (٢٠٠٥) لثقافة شعبية عبر (المدى) لان تتمتع باصدارين خلال الأسبوع عبر الصفحات الثقافية الخاصة بجريدتنا العزيزة وكل عام وانتم و (ثقافة شعبية) بخير.

ذاكرة المقاهي الكربلائية ... اتساع المعاني والطموحات

جاسم عاصي

في المقهى تتسع المعاني والطموحات باتساع الكلام والحوار، واتساع رؤية اصحابها وروادها. فإذا كان - عباس منسي- عبر مقهاه قد وسع الطريق الى بوابة التأريخ العام والخاص ، فإن ذاكرة- الحاج حبيب، والصرّاف، وسيد علي، واموري في كربلاء/ قد وسعت ألمكان ليكون مستقراً لطموحات الادباء والسياسيين وشيوخ العشائر والوجهاء والعلماء وطلبة العلم، سيما وانها تقابل ضريح الامام الحسين (ع) والمدينة دار علم ومزارات ومقدسات . فكل امرئ لابد من ان يتصل بالناس بدخوله هذه الأماكن ليستكمل دورته المسائية التي ابتدأت في الصباح. فالموظف يلتحق بثلته عصراً من اجل ان يسمع او يدلو بدلوه عن هموم دائرته واسرار الرواتب والعلاوات واوامر نقل السياسيين ، فالجلاس يلتقطون الصور والنفائس من الاخبار لتكون مادة جلساتهم ، بينما الاخرون تشغلهم السياسة والادب ، فيلتفون لشأن لهم ، فها هو جاسم المنكوشي الذي يحمل إرثه السياسي الذي يعتد به، يجلس متربعاً على الأريكة، حيث يبدو تعباً لكنه يقظ، ففي مقهى الصراف ، المقهى المزدانة جدرانه باللوحات الفريدة التي تحتوي على مناظر للطبيعة من الشمال والجنوب تظهر فيها قمم الجبال والثلوج واشجار الغابات، والمشاحيف واعواد البردي وصورة تلك المراة بائعة اللبن بزيها العربي وصدرها المرمري الناهد، وتاجها المتميز بمرصعاته التي تناقل الناس اخبارها حتى غدت ديكوراً سردياً لكل جدار في المقاهي. كما وتتزين سقوفها بالثريات ذات القطع العديدة والمثيرة، بينما مراوحها السقفية تنتمي الى زمن بعيد فهي - انكليزية- الصنع ، تحيط جدرانها رفوف تضم المزهريات واواني الشاي والسماورات والفرفوريات باحجام متباينة ونقوش تزين جوانبها، والمنكوشي- اعتاد عليها، فشغله الشاغل السياسة وانتخابات نقابة المعلمين ممثلاً فيها، يستقبل أقرانه، متحدثاً في شؤون السياسة وهموم المعلمين المهنية، وقد يأتيه حسن مردشوري، مع فتية آخرين، همهم القضية الفلسطينية وادبيات رموزها المتمثلة بالمنظمات ، فهذا مع جورج بوش وذاك مع حواتمة او احمد جبريل وهكذا تتوالى فعالياتهم داخل المقهى او خارجها على آرائك مقهى الصراف الصيفي المقابل حيث موقد الحطب الذي يعد الجمر لكأس الناركيله وجدار الفضاء المعلقة عليه، القامشيات الملونة التي تبرز نهاياتها مثل رضاعات الحليب، والزجاجيات تصطف على الدكة السيراميكية نظيفة صقيلة مشوبة برسوم ملونة، والمنكوشي يبقى ساهماً منتظراً يثني ساقيه تحته، واضعاً كفاً تحت خده ، متأملاً في بحر من التصورات فلا ينبهه سوى، محمد عصمان، محيياً (كيفك ياأبو عادل.. ؟) فيجيب : الحمد الله، فمحمد عصمان يخرجه من عزلته اللذيذة في سؤال متورط في رأسه عن حدث سياسي او اجتماعي حيث يطول الحوار، فما ان يتزايد عدد الرواد من الأصدقاء ، حتى تزداد الاصوات خاصة بعد خروجه من التوقيف مثلاً فمنهم من زاره في البيت، ومنهم من يلتقيه في المقهى إذ يطول الحديث وتكثر الاسئلة ولا يهمه في ذلك إلا العام من الهموم .

او قد ترى الشاعر المخضرم، شاكر البدري وهو يرصف نسيج ديوانه، زوارق الكحلاء ، ممسكاً بنسخة منه، مقلباً صفحاته، منشداً لجلاسه من شعره، الجميع يصغون ، بينما يعلق أحدهم من بعيد ، متورط مع البدري الذي لا يكل من جمع الردود المحكومة بالبداهة والعفوية، فقد نسى المعلق بأن البدري لا يسلم من لسانه أحد، العارف والمعروف وصانع النوادر والطرف، والمحتفظ بأسلوبه اللاذع والناقد ثم شاعريته الاصيلة والمتينة تشفع له بإسكات أي لسان يفتح بوابة الكلام، وما يميزه هي الوقفة في الكلام، حيث يعطيه شكلاً في الاداء متميزاً بالشد والجهر والانفعال، فهو لا يتوقف في عبارته وهو يلقي الشعر، بل يطول به المشوار، مستمرئاً الاصغاء، مشمراً ذراعيه، مغيراً أيقاع صوته بما يضفيه من عذوبة وطرافة وجد. وحيث يدخل الرواد تباعاً الى المقهى يبدأ المكان بالازدحام ليزاحم ويخلي ساحة الهدوء التي كان يتمتع بها، المنكوشي، لكن المساء يستقبلهم ويشير الى فرحتهم التي حانت للتجوال في منعطفات المدينة واسواقها الضيقة، بينما يتجمع الفتية في مقهى اموري، مجاور مكتبة الاهالي، لصالح عوينات او في مقهى كبير مقابل ساحة الامام علي، كتب على واجهة زجاجه الباحث والشاعر ، سلمان هادي طعمة، مقهى الادباء، وهذا ما ورد على لسان الجميع والعهدة على القائل فهو الحريص على ثقافة البلد والمدينة، والمتسقط عبر مؤلفاته أدق الاخبار والسير. في المقهى يلتقي كل من الشاعر، صاحب الشاهر وطامي عباس وجاسم عاصي، وقد يلتحق بهم الشاعر، محمد علي الخفاجي، الذي يتناوب مع الشاعر الكلام، والطرافة ليتحول المكان الى فرح طاغ وبهيج ، فهؤلاء وغيرهم يتحولون من مقهى الى آخر ، يلتقون هذا في الصراف، وذاك في مقهى الحاج حبيب، ويسلمون على جلاس مقهى سيد علي ، ومقاهي بغداد والنجف، يسهرون حتى ما بعد منتصف الليل، لذا فحلم الكلمة والسياسة ما يشد رؤيا هؤلاء الفتية والكهول.

وقد نجد في رواد مقهى سيد علي، خليطاً من الموظفين والمثقفين والكسبة واصحاب الحرف كالبنائيين ، فالمقهى صغير لكن ما يشفع له المفترق وحجارة الرصيف، فقد توزعت الكراسي الصغيرة ، سهلة النقل دونما ظهر، يجلس عليها المرء حتى تصل ركبته الى حنكه، والمقهى زاخر على صغره بمثل ما هو موجود في المقاهي الاخرى. وما يميز رواده هو هموم السفر الذي اعتاد عليه معلمو كربلاء، فالسياسة في رحاب العالم شغلهم الشاغل، وتتفاجأ إذا زرت مقهى الحاج حبيب أول مرة، سيما وانت تحط رحالك من سفر طويل، زائراً او تاجراً ا أوباحثاً عن مخطوطة، او ناهلاً من علوم الدين، فالمقهى لا يشبهه سوى مقهى البلدية في بغداد والذي كان مجاوراً لوزارة الدفاع، وبوابته الصغيرة على رأس الشارع المؤدي الى محكمة الشعب، دار الحكمة حالياً، هذا الاتساع ينفتح عل زوايا وعمق ووسط للجميع حق اشغاله لكن ما يميز رواده كونهم من وجهاء المدينة وشيوخ عشائرها وعلمائها، فهو محطتهم الاولى ان دخلوا او خرجوا من المدينة فدالتهم في اللقاء مقهى الحاج حبيب ، فأنت تجد فيه اجواء للقراءة والكتابة وهكذا كنا نفعل بعيداً عن الضجيج مختارين الزوايا القصية منه لايزاحمنا فيه احد ، إذ الزمن بهدوئه ورصانته وفيضه.

هكذا تشكلت صورة المكان، المقهى، في ذاكرة الأجيال، سيما ان المتجول الآن وهو يبحث عن ملاذ كما كان، يصاب بخيبة الامل فأين يلتقي أصدقاءه ورفاق كلمته، اين هم صحبه؟، فقد توزعوا فلا يمر سوى في مقهى سيد علي، القائمة، حيث يتوزع الرواد على ارض مفروشة بالبسط العربية (الحياكة) او على الكراسي الصغيرة سهلة الحمل، بعد ان ينشغل آخر مكان على أخر اريكة في داخله، هكذا وانت تمر عجالة او تأتي لتلاحظ عدداً من ذوي الدشاديش (البيض) وهم يحملون اقداح الشاي ، شاي مقهى سيد علي اللذيذ، الذي لا يقل طعماً عن شاي المسعودي، قرب جمعية الموظفين في السوق نفسه.

ستديو ثقافة شعبية خلال عام ٢٠٠٤

عنتر وعبلة

زي من قبيلة شمّر

الملا عبود الكرخي بزيه الشعبي

من احتفالات عيد البيض في قرية نمساوية

عروس من الايار الهنود